التفكير التداولي في البلاغة العربية

Characteristics of pragmatic thinking in Arabic rhetoric

بن مصطفى أمبارك
المركز الجامعي آفلو - الأغواط، الجزائر
blembark@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/12/ 18	تاريخ القبول: 2022/12/28	تاريخ النشر: 2022/12/30

Abstract

If pragmatics is the science of the use of language and is concerned with both the speaker and the interlocutor, the circumstances of communication, then Arabic rhetoric was not far from this concept. It is the science that studies the conversational relationship between the speaker and the addressee. Some of them even believed that Arabic rhetoric is pragmatic in its essence. And if pragmatics is the science of the use of language , rhetoric is knowing the language while using it .It is the art of telling, therefore the discourse of rhetoricians can be said to be about issues such as position, context, goals, info and structure, and parties to the conversation...

In fact, it is a pragmatic research that confirms that Arab rhetoricians practiced the pragmatic approach before it spread as a Western approach. In this sense, what we are looking for through this research dissertation is an attempt to read and approach Arabic rhetorical research from the point of view of pragmatic linguistics, after having raised the following problems and tried to answer them: What is the concept of both rhetoric and pragmatics?

Where is the pragmatic thinking reflected in Arab rhetoric ? Can Arab rhetoric be considered pragmatic ?What are the most important pragmatic themes found in Arab rhetorical research?Is it possible to develop the efforts of ancient Arabic rhetoricians to establish a pragmatic Arabic linguistic theory?

Keywords: rhetoric, pragmatics, communication, language, usage.

ملخص البحث

إذا كانت التداولية هي علم استعمال اللغة وتعنى بكل من المتكلم والمخاطب، وظروف وملابسات التخاطب، فإن البلاغة العربية لم تكن بعيدة عن هذا المفهوم، إذ أنها العلم الذي يدرس العلاقة التخاطبية بين المتكلم والمخاطب حتى حذا ببعضهم القول أن البلاغة العربية تداولية في صميمها، وإذا كانت التداولية علم استعمال اللغة، فإن البلاغة هي المعرفة باللغة أثناء استعمالها. وبكلمة هي فن القول، ولذا يمكن القول أن حديث البلاغيين عن قضايا من قبيل المقام والسياق، والمقاصد، والخبر والإنشاء، وأطراف التخاطب ... هي في الحقيقة مباحث تداولية تؤكد على أن البلاغيين العرب قد مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته بصفته منهجا غربيا.

ومن هذا المنطلق فإن الذي نسعى إليه من خلال هذه الورقة البحثية هو محاولة قراءة ومقاربة البحث البلاغي العربي من منظور اللسانيات التداولية، من خلال طرح الإشكاليات الآتية ومحاولة الإجابة عنها: ما مفهوم كل من البلاغة والتداولية؟ أين يتجلى الفكر التداولي في البلاغة العربية؟ هل يمكن اعتبار البلاغة العربية تداولية؟ ما هي أهم المباحث التداولية الموجودة في البحث البلاغي عند العرب؟ وهل يمكن أن تنم جهود البلاغيين العرب القدماء في التأسيس لنظرية لسانية عربية تداولية.؟

لقد أصبح اليوم يتوجب علينا أكثر مما مضى العودة إلى هذا التراث الفكري الذي خلفه القدماء، وسبر أغواره للوقوف على القيمة الفكرية له وجهود العلماء فيه، فلا مجال للباحث لمعرفة أحدث العلوم والنظريات إلا إذا عاد إلى ماضيه ومحصه ونقب فيه للوصول إلى هذه الدرر الثمينة الكامنة فيه، وكل هذا يقودنا إلى القول بأنه قد كان لعلمائنا قصب السبق في كثير من القضايا اللسانية.

ولكن المشكل الذي يطرح نفسه أننا حينما نتكلم عن مسألة التراث واللسانيات الحديثة تستوقفنا جملة من التجاذبات الفكرية لعل من أهمها ما أكد عليه عبد السلام المسدي بقوله: " ... ومع ذلك ترانا أحد رجلين فإما ناقل لفكر غربي، وإما ناشر لفكر عربي قديم. فلا النقل في الحالة الأولى ولا النشر في الحالة الثانية يصنع مفكرا عربيا معاصرا، لأننا في الحالة الأولى نفتقد عنصر العربي، وفي الحالة الثانية نفتقد عنصر المعاصرة. والمطلوب هو أن نستوحي

لنخلق الجديد سواء عبرنا المكان لننقل عن الغرب أو عبرنا الزمان لننشر عن العرب الأقدمين"[1].

ولذا نجد أن العلاقة بين اللسانيات الحديثة والتراث العربي قد مرت بمرحلتين:

- المرحلة الأولى: وقد عرفت انبهار الكثير من الباحثين العرب باللسانيات، فتبعها نقد شديد للتراث النحوي والبلاغي، وتشكيك في كفايته الوصفية.

- المرحلة الثانية: وتميزت هذه المرحلة بالعودة إلى التراث العربي ومحاولة اكتشافه وقراءته على ضوء اللسانيات الحديثة[2].

وانطلاقا مما سبق يمكن القول أن الذي نسعى إليه من خلال دراستنا هذه هو محاولة استنطاق التراث البلاغي من منظور اللسانيات التداولية، لنقف على عصارة الفكر اللساني التداولي عند علمائنا القدماء، وللوقوف على بعض المفاهيم والإجراءات عندهم والتي تصب في صلب النظرية اللسانية التداولية.

1/ التداولية والبلاغة العربية:

إن الحديث عن البلاغة العربية عند القدماء والتداولية في الفكر الغربي المعاصر يوحي بتصور عميق لأهمية المقام والسياق والتواصل في دراسة الظاهرة اللغة وانفتاحها على دلالات ومعاني مرتبطة بأغراض المتكلمين ومقاصدهم، تجعل من اللغة نظاما تواصليا يستمد وظيفته من جملة من العلاقات البنيوية والتداولية على أساس أن دراسة اللغة تتم في إطار العلاقة بين المتكلم والمخاطب والظروف والملابسات المحيطة بعملية التخاطب.

أ/ التداولية:

تعتبر التداولية اليوم أحدث تيار لساني إذ جاءت كرد فعل على المناهج اللسانية البنيوية، والتوليدية التحويلية التي وصلت إلى طريق مسدود ولم تقدم حلولا لكثير من الإشكاليات في دراستها للظاهرة اللغوية مما حذى ببعض الباحثين اللغويين واللسانين إلى إعادة النظر في الدرس اللساني، ومحاولة البحث عن أوجه القصور فيه، فكان البديل أن توجه البحث اللغوي إلى الاتجاه التواصلي لعله يجيب عن كثير من الأسئلة التي تركت فراغا كبيرا في الساحة اللغوية من قبيل: من يتكلم؟ إلى من يتكلم؟ ما الغاية المرجوة من الكلام؟

وإذا ما أردنا الوقوف على تعريف محدد ودقيق للتداولية فإنه ينبغي النظر أولا إلى علاقتها باللسانيات من جهة، وبالحقول المعرفية الأخرى من جهة ثانية، ومن ثم النظر إلى المعيار الذي يمكن أن نحدد من خلاله تعريفا للتداولية[3].

ولذا يمكننا القول أن الباحثين في تعريفهم لهذا العلم اختلفت وجهات نظرهم وتعددت آراؤهم، وتنوعت تعاريفهم، ويرجع هذا التنوع والتعدد في تعريف الباحثين لهذا العلم إلى أمرين:

- تداخلها مع كثير من العلوم، إذ أن جملة من العلوم قد أسهمت في تشكيل هذا الاتجاه، فهو اتجاه قد تعددت روافده المعرفية التي قد أمدته بجملة من المفاهيم المستقرة فيها، كالفلسفة التحليلية التي نشأت التداولية في كنفها، وعلم الدلالة، وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي وغيرها.

- تنوع النظريات التي تشكلت داخل الاتجاه التداولي، مما جعل الباحث داخل إحدى هذه النظريات يوجه التداولية نحو النظرية التي ينطلق منها[4].

فالتداولية pragmatique إذا هي دراسة اللغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية[5]. ولعل أوجز تعريف للتداولية وأقربه للقبول هو دراسة اللغة في الاستعمال أو التواصل[6].

أو كما يرى مسعود صحراوي هي " مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية"[7]. فالتداولية هي علم استعمال اللغة ذلك العلم الذي يعنى بالتواصل وأطرافه، والمقام ومقتضياته.

ب/ البلاغة العربية:

ورغم ما بين البلاغة والتداولية من اختلاف في الرؤى والمنهج والنشأة والدراسة إلا أنهما تشتركان في إطار عام وهو الإطار التواصلي، وإذا عدنا إلى مفهوم البلاغة العربية عند العرب القدماء نجدها لا تخرج عن هذا الإطار فالبلاغة عندهم في الاشتقاق اللغوي تعني الوصول والانتهاء، يقال بلغ الشخص بلاغة، إذا وصل بكلامه إلى ما يريده له من إمتاع أو إقناع.[8]

أما أبو هلال العسكري فقد ذهب إلى أن البلاغة من قولهم" بلغت الغاية إذا انتهيت إليها، وبلغتها غيري. ومبلغ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء: الانتهاء إلى غايته. فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه."[9]

وأما في الاصطلاح فهي " كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن."[10] وهي أيضا "بلوغ المتكلم في تأدية المعنى حدا له اختصاص بتوفية خواص التركيب حقها، وايراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"[11].

ومن خلال الوقوف على مفهومي كل من البلاغة والتداولية يمكن القول أنهما يشتركان في الاستعمال والتواصل، والاهتمام بالمعنى وأطراف التخاطب.

ولذا يمكن القول أن البلاغة العربية " في دراستها للخطابات المتنوعة قرآن وحديث وشعر وخطابة، اهتمت بتقديم توصيف لعناصر العملية التواصلية (متكلم وسامع ورسالة ومقام ومرجع وحتى القناة التواصلية) وفي إطار هذا التوصيف عنيت بمقاصد الخطاب وأحوال المتلقين له، وشروط الخطاب الناجع الذي يحقق الفائدة لدى المتلقي، والمؤشرات اللغوية وغير اللغوية المتحكمة في ذلك، مما أكسب البلاغة العربية أبعادا لسانية وتداولية مهمة، تضمن لها التواصل المعرفي مع معطيات الدرس الحديث والمعاصر."[12]

2/ بين التداولية والبلاغة العربية:

تلتقي البلاغة العربية مع التداولية في معالجتهما لكثير من القضايا المشتركة فكلاهما يبحث فيما يتعلق بالمتكلم والمخاطب والتواصل والسياق والمقام، ولعل أوجز تعريف للبلاغة العربية هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

ويرى الباحث الألماني لوسبرج Laus berg H أن البلاغة " نظام له بنية من الأشكال التصورية واللغوية، يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدد، وبنفس الطريقة يرى ليتش Leitch V أن البلاغة تداولية في صميمها، إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما. ولذلك فإن البلاغة و التداولية البرجماتية تتفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي، على أساس أن النص اللغوي في جملته إنما هو نص في موقف"[13].

وقد قيل بأن البلاغة العربية القديمة في صميمها تداولية فكثير من القضايا التي أثارها علماء البلاغة العرب يمكن أن تصنف ضمن المباحث التداولية فعلى سبيل المثال" ارتبط سؤال المناسبة المقامية التداولية في أجلى صوره بالبحث عن فعالية علمية إقناعية خطابية من جهة (عند الجاحظ مثلا)، كما ارتبط من جهة أخرى بملاءمة العبارة للمقاصد ضمن نظرية النظم الاعجازية، (أو ما يمكن أن ندعوه تداولية لسانية في مقابل التداولية المنطقية)، وارتبط من جهة ثالثة بالبحث عن بلاغة كلاسيكية ذوقية تقوم على الصحة والمناسبة عند ابن سنان مثلا"[14].

3/ الفكر التداولي في البلاغة العربية:

لقد كان علماء البلاغة على وعي كامل بأهمية أطراف الحديث وظروف وملابسات التواصل في توجيه الحدث الكلامي، وقد ظهر ذلك جليا في تحليلاتهم وذلك من خلال حديثهم عن قضايا من قبيل الخطابة والفصاحة وحديثهم عن مقتضى الحال، والمقام، وتقسيمهم للكلام إلى خبري وإنشائي، وحديثهم أيضا عن الخبر وأضربه ، والتقديم والتأخير، وهذه كلها مسائل تظهر فيها السمات التداولية وإجمالا يمكن القول أن البلاغة هي " أحسن ما يتناول إبراز العلاقات التداولية في اللغة، لأنها تهتم بدراسة التعبير على مختلف مستوياته: اللفظية والتركيبية والدلالية، والعلاقات القائمة بينها"[15].

فالبلاغيون كان لسان حالهم يقول: لا يمكن الحديث عن الملفوظ دون استحضار للموقف الكلامي الذي قيل فيه، ولا يمكن الحديث عن المقال دون ربطه بالمقام، ولذا يقول تمام حسان: "وإذا كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين بألف سنة تقريبا على زمانهم لأن الاعتراف بفكرتي: (المقام) و(المقال) باعتبارهما أساسيين متميزين من أسس تحليل المعنى، يعتبر الآن في الغرب من الكشوفات التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة. وفكرة (المقام) هذه هي المركز الذي يدور حول الدلالة الوصفية في الوقت الحاضر وهو الأساس الذي يبني عليه الشق أو الوجه الاجتماعي من وجوه المعنى الثلاثة، وهو الوجه الذي يتمثل في العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال"[16].

فالمقال عند البلاغيين يقابل مسمى السياق اللغوي في الدراسات اللسانية الغربية، وأما مصطلح (المقام) فيقابل مسمى سياق الموقف، وهذا إن دل إنما يدل على أن علماء البلاغة قد

كان تحليلهم للمعنى ضمن السياق بنوعيه، وذلك باستحضارهم لجملة المفاهيم التي تعد من صميم البحث التداولي ك:

- دراستهم لمجال الترابط بين البنية والوظيفة.

- دراستهم للغة بعدها وسيلة تواصل وتبليغ وتعبير عن المقاصد والأغراض.

- اعتمادهم على مبدأ لكل مقام مقال.

- اهتمامهم بعناصر الموقف الاتصالي (المتكلم، والمخاطب، وظروف وملابسات التخاطب)

- دراستهم للأساليب الخبرية والانشائية، وخروجها عن دلالاتها الحقيقية إلى دلالات أخرى يقتضيها المقام والموقف السياقي.

- دراستهم لمجموعة من الوظائف، كالتخصيص، والتقييد، والتوكيد دراسة تداولية.[17]

وقد أولى البلاغيون المقام أهمية كبرى وذلك بقولهم في عبارتهم الشهيرة "لكل مقام مقال" وقولهم "مطابقة المقام لمقتضى الحال" لما في ذلك من أثر على التواصل وعملية الفهم والافهام إذ يقول الجاحظ:"والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[18].

فقد بين الجاحظ أن الغاية من التخاطب هي الفهم والإفهام ليبن حقيقة مفادها أن اللغة تستعمل في التخاطب للتعبير عن الأغراض والمقاصد، وفي هذا إشارة إلى الوظيفة التداولية للغة، فالجاحظ أكد على أن اللغة استعمال، ونلمس ذلك في قوله:" وإنما يحيى تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والبعيد قريبا، وهي التي تلخص الملتبس... وكلّما كانت الدّلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجح."[19]

فالجاحظ بين أنه كلما كان البيان أوضح وأفصح كان التخاطب أنجح وانجع، "وضرورة استعمال المعاني ، بالإخبار عنها واستعمالها بما يضمن الفهم ويُوضِّحه للسَّامع ، يكون بالتركيز

على ضرورة إفهام المخاطب ، وإبلاغه محتوى رسالته التَّخاطُبيَّة . وهذا جوهر التّداوليّة . كما يشترط "الجاحظ" أن يكون استعمال المعاني مفيداً ومحقّقاً لقصد المتكلّم أي فيه منفعة[20].

كما يمكن أن نلمس الملمح التداولي عند الجاحظ في تركيزه على الملفوظ و المكتوب . أي التواصل الشفوي . وإشارته إلى أنواع أخرى من التواصل بقوله:" وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص و لا تزيد: أولها اللفظ، ثم الاشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة. والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة، من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعما يكون منها لغوا بهرجا، وساقطا مطرحا"[21].

ويقول الجاحظ في موضع آخر من كتابه الحيوان" ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد في الكلام."[22] ففي هذا النص إشارة صريحة إلى الاستراتيجيات التخاطبية التي يسلكها المتكلم في خطابه، والتي تكون وفق ما يقتضيه المخاطَب، بحكم أنه يمكن أن يؤدي تغير المخاطبين، ومراعاة حالهم إلى تغير شكل الخطاب. والذي انطلق منه الجاحظ هو مراعاة خصوصية المخاطب، فمعاني القرآن الكريم تفهم من طرف العرب والأعراب إشارة وتلميحا، فهم أهل العربية والفصاحة والبيان، أما بنو إسرائيل فلا يمكن أن يتأتى لهم ذلك إلا من خلال بسط الكلام والإبانة فيه دون غموض فيه أو تعقيد.

فالبلاغيون" انطلقوا من النظر إلى التراكيب على أساس (موافقة الكلام لمقتضى الحال) أو من مقولة (لكل مقام مقال) وقد أكد عبد القاهر الجرجاني في أكثر من موضع على أهمية المقام وتأثير عناصره على المقال دلاليا وتركيبيا، بل يجعل مزايا النظم بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام."[23] ويضرب مثالا لذلك يبين من خلاله الفروق بين التراكيب في قوله:" ومن فروق الإثبات أنك تقول: (زيد منطلق) و(زيد المنطلق) و(المنطلق زيد) فيكون لك في كل واحد من هذه الأحوال غرض خاص وفائدة لا تكون في الباقي. وأنا أفسر لك ذلك. اعلم أنك إذا قلت: (زيد منطلق) كان كلامك مع من لم يعلم أن انطلاقا كان، لا من زيد ولا من عمرو، فأنت تفيده ذلك ابتداء. وإذا قلت زيد المنطلق كان كلامك مع من عرف أن انطلاقا كان، إما من زيد وإما من عمرو، فأنت تعلمه أنه كان من زيد دون غيره، والنكتة أنك تثبت في الأول الذي

هو قولك: (زيد منطلق) فعلا لم يعلم السامع من أصله أنه كان، وتثبت في الثاني الذي هو (زيد المنطلق) فعلا قد علم السامع أنه كان، ولكنه لم يعلمه لزيد. فأفدته ذلك"[24].

فقد ربط الجرجاني بين بنية المقال والمقام مبينا ذلك الفرق الدقيق بين التركيبين من خلال مراعاته لمقصدية المتكلم وإفادة السامع، والغرض الذي ينبئ به كل تركيب، فالبلاغي "ينظر إلى التراكيب على أساس صورتها الظاهرة المنجزة في إطار من التفاعل بينها وبين مقتضيات المقام"[25].

ويقول الجرجاني بعد أن بين الفرق بين نظم الحروف والكلم:" والفائدة في معرفة هذا الفرق: أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم، أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل."[26] فهذه إشارة صريحة من الجرجاني إلى أهمية المعنى وعلاقته بالسياق.

فنظرية النظم توكد على أهمية المعاني النحوية ودورها في إيضاح المعنى ضمن أبعادها أو سياقاتها الخارجية التي تحيط بالموقف الكلامي، وتحدد مقاصد المتخاطبين وأحوالهم وأغراضهم.

وقد ربط عبد القاهر الجرجاني معاني النحو بالنظم، وأكد على أهمية سياق التواصل وأثر مقصدية المتكلم في توجيه دلالات المعاني حيث يقول في هذا: " ... وفساد هذا وشبيهه من الظن، وإن كان معلوما ظاهرا، فإن ها هنا استدلالا لطيفا تكثر بسببه الفائدة، وهو أن يتصور أن يعمد عامد إلى نظم كلام بعينه فيزيله عن الصورة التي أرادها الناظم له، ويفسدها عليه من غير أن يحول منه لفظا عن موضعه، أو يبدله بغيره، أو يغير شيئا من ظاهر أمره على حال"[27].

ومثال ذلك قول أبي تمام: "

لُعَابُ الأَفَاعِي القاتلاتِ لُعابُهُ وأَرْيُ الجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ

فالصياغة النحوية أو التحليل البنيوي الصوري يقتضي أن يكون (لعاب الأفاعي) مبتدأ و(لعابه) خبر هذا ما تطلبه القاعدة النحوية، فهذا التحليل يفسد على المتكلم والمتلفظ كلامه الذي أراد أن يقوله أو الصورة التي أراد أن يوصلها إلى المخاطب.

فعبد القاهر الجرجاني فقد بين خطأ هذا التحليل بمراعاة قصد المتكلم وغرضه في الكلام موضحا الغاية أو الغرض الذي يسعى إليه أبو تمام وذلك: " أن يشبه مدار قلمه بلعاب الأفاعي على معنى أنه إذا كتب في إقامة السياسات، وكذلك الغرض أن يشبه مداده بأرى الجني على معنى أنه إذا كتب في العطايا والصلات أوصل به إلى النفوس ما تحلو مذاقته عندها، وأدخل السرور واللذة عليها، وهذا المعنى إنما يكون إذا كان (لعابه) مبتدأ، (ولعاب الأفاعي) خبرا، فأما تقديرك أن يكون (لعاب الأفاعي) مبتدأ و(لعابه) خبرا فيبطل ذلك، ويمنع منه البتة، ويخرج بالكلام إلى ما لا يجوز أن يكون مرادا في مثل غرض أبي تمام، وهو أن يكون أراد أن يشبه لعاب الأفاعي بالمداد، ويشبه كذلك الأريَ به"[28].

ففهم مراد المتكلم وقصده قرينة تداولية كان لها الأثر في تحديد الوظيفة النحوية الأنسب للتعبير عن مراد أبي تمام وهو تقديم الخبر وتأخير المبتدأ. فالمبنى في نظر الجرجاني تابع للمعنى.

وقد أشار الجرجاني في تحليله هذا إلى مسألة المقصدية، فقد أصبح مصطلح القصد من الأسس التداولية التي اعتمدت عليها الدراسات اللسانية الحديثة، خاصة تلك التي تعنى بما يحيط بالملفوظ من ظروف وملابسات ومقام وقد راعاه النحاة والبلاغيون العرب القدماء في تحليلاتهم النحوية والبلاغية وارتبط هذا المصطلح عندهم بالمتكلم، فهو الغاية أو المعنى الذي يسعى المتكلم إيصاله إلى المخاطب، فالقصد أو الغرض قرينة تداولية كانت حاضرة في تحليلات البلاغيين.

إذ اعتبر القصد من أهم القضايا في الدراسات البلاغية فكان "مدار البحث والمركز في بيان الجاحظ ومعاني السكاكي هو الأحوال والمقاصد، وكذلك كان عند الجرجاني في نظرية النظم، فهو من أكثر العلماء الذين رددوا مصطلح القصد، بل كان محور نظريته، بوصفه سبب العدول عن التركيب الأصل هو لبيان قصد المرسل بالاستجابة للسياق تداوليا"[29].

ويمكن الحديث عن قضايا أخرى طرقها البلاغيون في مبحث " علم المعاني " كالتقديم والتأخير، والحذف، والتعريف والتنكير، فهذه الظواهر اللغوية تحكمها مقصدية المتكلم وأغراضه، وأحوال الكلام ومقتضياته.

فالتقديم والتأخير مثلا من القضايا التي شغلت علماء البلاغة فهو في اللغة العربية يتيح للمتكلم إضفاء حركية على الملفوظ بتغيير بعض عناصره فتعطي النظام التركيبي للملفوظ

مرونة وحيوية ودقة في تحديد المعاني وتوسيع دلالات الكلام فيتولد عن كل تقديم وتأخير معنى جديدا. عكس ما نجد في كثير من اللغات الأخرى التي تتميز أنظمتها اللغوية بالنمطية فلا مجال فيها لخاصية التقديم والتأخير، والتوسع في دلالات الكلام، و انفتاح المعاني. فلا يتبع المتكلم أو المتلفظ استراتيجية واحدة في التعبير عن أغراضه ومقاصده.

فتحريك المتكلم لعناصر اللغة يقع بدوافع سياقية ومقاصدية تجبر المتكلم على تقديم عنصر في موضع وتأخيره في موضع آخر لتحقيق أغراض تداولية، وهذا ما أشار إليه الجرجاني حينما ذهب إلى أن غاية التقديم والتأخير لا تتوقف على العناية والاهتمام بالمتقدم فقط ومن هنا " فإن الذي يسعى عبد القاهر الجرجاني إلى التنبيه إليه، في هذا النص، أن مزية التقديم والتأخير ليست محصورة في العناية بالمتقدم فحسب بل هي في كونه إجراء مبنويا اختيارا ينفتح على جملة من المعاني النحوية الدقيقة التي يجد فيها المتكلم ضالة البيان الكافي بما يحصل به التفاوت والتباين ويجد فيها السامع الفهم الدقيق والمتعة الرائقة"[30].

ولذا يمكن القول أن المتكلم لا يسعى إلى تحريك عناصر اللغة جزافا، وإنما يلجأ إلى هذه الآلية التداولية وهي التقديم والتأخير، للتعبير عن الأغراض والمقاصد وفقا للسياق، والمقام، وظروف وملابسات التلفظ.

وتعتبر أيضا نظرية الخبر والإنشاء عند البلاغيين القدماء من المباحث التداولية اليوم فهي من الجانب المعرفي العام مكافئة لمفهوم الأفعال الكلامية عند المعاصرين."[31]

وقد ذهب العلماء العرب إلى أن الكلام المفيد ينقسم إلى قسمين هما: الخبر والإنشاء، ووقفوا على حد كل منهما بقولهم:" الكلام إما خبر أو إنشاء، إن كان لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه، فخبر، وإلا فإنشاء."[32] فالخبر عندهم هو الذي يحتمل الصدق أو الكذب، وأما الإنشاء فهو الذي لا يحتمل الصدق ولا الكذب.

فحديث البلاغيين عن الأساليب الإنشائية والخبرية وأغراضها البلاغية هو بلغة المعاصرين أفعال كلامية، وأن خروج الأساليب البلاغية عن أصلها ينتج عنه إنجاز أفعال كلامية غير مباشرة تعرف من السياق والمقام، وهذا عناه كل من أوستين وسيرل حينما فرقا بين الأفعال الكلامية المباشرة direct والأفعال الكلامية غير المباشرة indirect." فكلما وجدت علاقة مباشرة بين البنية والوظيفة، تحصل على فعل كلامي مباشر direct speech act، بينما

كلما وجدت علاقة غير مباشرة بين البنية والوظيفة تحصل على فعل كلامي غير مباشر indirect speech[33]

فالبلاغيون لم يهتموا بطرفي التخاطب فقط بل اهتموا أيضا بظروف وملابسات التخاطب وأحواله، وهذا يدل على أن وعي البلاغيين الدقيق بهذه العناصر قادهم إلى اعتبار أن اللغة " ظاهرة اجتماعية، وأنها شديدة الارتباط بثقافة الشعب الذي يتكلمها، وأن هذه الثقافة يمكن تحليلها بواسطة حصر أنواع المواقف الاجتماعية المختلفة التي يسمون كلا منها مقاما، فمقام الفخر غير مقام المدح، وهما يختلفان عن مقام الدعاء أو الاستعطاف"[34].

وإذا كانت " التداولية العلم الذي يعنى بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منتظم مما يطلق عليه سياق النص، ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة (بمقتضى الحال) وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية (لكل مقام مقال) "[35]. ومن هذا المنطلق يمكن القول أن البلاغة العربية هي " التأثير المتبادل بين مرسل ومتلقي في حالة حضور أو غياب، باستعمال للأدلة اللغوية، مطابق لمقتضى المقام والمقال"[36].

وإذا كانت التداولية" تعنى بالشروط والقواعد اللازمة للملاءمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاصة به أي للعلاقة بين النص والسياق"[37]. فإن البلاغة كذلك.

فالبلاغة العربية تلتقي مع التداولية في أن كليهما يهتم بالتخاطب والتواصل ويسعى إلى تحقيق جملة من الشروط التي إذا تقيد بها المتكلم عبر عما في نفسه وحصلت الإفادة والإقناع للمتلقي.

ومن هنا يمكن القول أن التصورات والرؤى التي طرحها البلاغيون في معالجتهم للخطاب البلاغي، والفكر اللغوي عموما، إضافة إلى ما قدمه علماء العرب من مفسرين وأصوليين، ولغويين، يمكن أن تسهم في التأسيس لنظرية تداولية عربية، كما أنها ستسهم في مد جسور التلاقي بين الطروحات التي تبناها الدرس التداولي المعاصر والتراث اللغوي العربي.

الهوامش والإحالات:

[1] عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط 2، 1986م. ص 12.

[2] ينظر: معاذ بن سليمان الدخيل، منزلة معاني الكلام في النظرية النحوية، مقاربة تداولية، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس، ط1، 2014م، ص 56.

[3] ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص 15.

[4] معاذ بن سليمان الدخيل، منزلة معاني الكلام في النظرية النحوية العربية، ص 19.

[5] فليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان،، تر: صابر الحباشة، دار الحوار اللاذقية، ط1، 2007م، ص 18 . 19.

[6] ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص 12 . 13 . 14.

[7] مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 05.

[8] ينظر: عبده عبد العزيز قلقيلة، البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربي، ط3، 1992م، ص 30.

[9] أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1986م، ص 06.

[10] ينظر: المصدر نفسه، ص 08.

[11] السكاكي، مفتاح العلوم، تح: اكرم عثمان يوسف، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ط1، 1982م، ص 69.

[12] باديس لهويمل، التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، مجلة أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد 7، 2011م، ص 172.

[13] صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، د ط، د ت، ص 89.

[14] محمد العمري، البلاغة العربية، الأصول والامتدادات، ط1، 1998م، ص 26.

[15] خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009م، ص 154.

[16] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، د ط، د ت، ص 337.

[17] باديس لهويمل، التداولية والبلاغة العربية، ص 170- 171.

[18] الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط7، 1998م، ج1، ص 76.

[19] المصدر السابق نفسه، ج1، ص 75.

[20] ينظر: منادي محمد الحبيب، الجهود التداولية للجاحظ بين سبق التأصيل وضعف التفعيل، ص 06.

[21] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 76.

[22] الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، ط3، بيروت، 1969م، ج1، ص 94.

[23] عبد الحميد السيد، دراسات في اللسانيات العربية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2004م.

ص 127.

[24] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق: محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، دت، ص 177 -178.

[25] عبد الحميد السيد، دراسات في اللسانيات العربية، ص 129.

[26] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، دت، ص 50 -51.

[27] المصدر نفسه، ص 243.

[28] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 244.

[29] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتجيات الخطاب، ، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الحديد المتحدة، ط1، 2004م، ص 201

[30] الطيب دبة، خصائص النحو العربي من النظام المغلق إلى النظام المفتوح، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية محكمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 108، ص 211.

[31] مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 49.

[32] الخطيب القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، شرح: عبدالرحمان البرقوقي، دار الفكر العربي، ط1، 1904م، ص 38.

[33] جورج يول، التداولية، تر: قصي العتابي، الدار العربية للطباعة ناشرون، بيروت، ط1، 2010م، ص 90.

[34] المرجع السابق نفسه، ص 135.

[35] المرجع نفسه، ص 21.

[36] المرجع نفسه، ص 138

[37] صلاح فضل، البلاغة وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1978م، ص 20.

قائمة المصادر والمراجع:

1 مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005م

2- معاذ بن سليمان الدخيل، منزلة معاني الكلام في النظرية النحوية العربية مقاربة تداولية، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس، ط1، 2014م.

3- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2002م.

4- محمد العمري، البلاغة العربية، الأصول والامتدادات، ط1، 1998م.
5- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1986م.
6- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، تح: اكرم عثمان يوسف، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ط1، 1982م.
7- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، د ط، د ت.
8- صلاح فضل، البلاغة وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1978م.
9- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط7، 1998م.
الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، ط3، بيروت، 1969م.
10- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009م.
11- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، د ط، د ت.
12- عبد الحميد السيد، دراسات في اللسانيات العربية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2004م.
13- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق: محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط،دت.
14- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط 2، 1986م.
15- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الحديد المتحدة، ط1، 2004م.
16- عبده عبد العزيز قلقيلة، البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربي، ط3، 1992م
17- جورج يول، التداولية، تر: قصي العتابي، الدار العربية للطباعة ناشرون، بيروت، ط1، 2010م.
18- فليب بلانشيه ، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار اللاذقية، ط1، 2007م.
19- باديس لهويمل، التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، مجلة أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد 7، 2011م.
20- الطيب دبة خصائص النحو العربي من النظام المغلق إلى النظام المفتوح، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية محكمة تصدر عن إتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 108.